حبال الزينة

مسافرٌ بقلبٍ غير الذي جئتُ به، جئت محملًا بالهموم، تعصف بعقلي ألف فكرة، وأول ما فكرت فيه كان البيت.

البيت.. كما هو، نفس الروح والعبق، لم أصدق أنني أخيرًا وصلت البيت بعد غياب السنين، صعدتُ الدرج بأقدام الطفل الذى لا يزال يحيا داخلي وكان يلعب عليه صعودًا وهبوطًا بين شقته وشقة جده في الطابق الأعلى.

العطلة لم تكن سوى ثلاثة أسابيع، أسبوع منها يسبق رمضان. قررتُ أن أقضيها في وطني وبيتنا القديم.

دخلتُ الشقة المحملة برائحة أبي وأمي ألمس الأشياء القديمة وطاولة الطعام التي كانت تجمعنا ولم يبق سواي.

دخلتُ غرفتي ووضعتُ حقائبي وفتحتُ باب شرفتي التي تقابلها على الناحية الأخرى شرفة البيت المقابل لبيتنا، بيت عمي.

نظرتُ بنصف عين، وسألت نفسي:

"كيف حال ابن عمي الآن؟ آخر ما سمعتُ عنه أنه تزوّج في بيت والده في تلك الشقة."

منذ زمن لم نتحدث معًا، منذ خلاف أبي وعمي على ميراث جدي، وكنت مسافرًا وقتها وكنا نتحدث على الهاتف ونتفق قليلًا ونختلف في الرأي كثيرًا. حتى اشتد الصراع بين أبوينا واحتدم معه حديثنا عبر الهاتف وانتهى بعدها بصمت طويل يتبعه سكون أطول لسنوات ساعد فيها ابتعادي عن الوطن على الجفاء بيننا.

وقفتُ أنظر لشرفته وأصابعي تداعب حبلًا قديمًا مهترئًا من زينة رمضان يمتد بين شرفتينا كنا قد صنعناه صغارًا معًا.

كان جدي يجمعنا قبل كل رمضان لنصنع حبال الزينة، نجمع أوراقًا قديمة ونلونها بألوان مبهجة ونلصقها في الحبل ثم نعلقها بين البيتين. كانت أفضل من تلك الحبال الجاهزة التي تباع في المحلات. يكفي فرحة اجتماعنا لصنعها.

فكرتُ أن أصنع هذه المرة تلك الحبال بنفسي، لمَ لا، لدي وقت كافٍ قبل رمضان لصنعها.

ذهبتُ بعد ذلك لشراء ما يلزمني للبيت وللحبال، وجلستُ ذات مساء أصنعها، وحين انتهيتُ من أول حبل فكرتُ كيف سأعلقه وأنا أحتاج لربطه في الشرفة الأخرى بشقة ابن عمي.

"هل يقبل؟ هل يفتح لي الباب؟

أم يراني من خلف العين السحرية ويأبى؟

أم يعتذر بلباقة؟"

قررتُ قطع حبل الأسئلة وربط حبل الزينة، فليحدث ما يحدث.

نزلتُ ومعي الحبل وصعدتُ الدرج ببيته تتقدم خطواتي بوجل بعكس خطوات الطفل الصغير الذى لعب مع ابن عمه على هذه الدرجات كثيرًا، وجلسا عليها ليتبادلا الأحاديث والأسرار لفترتي الطفولة والمراهقة. الأسرار التي حتى الآن لا يعرفها أحد سوانا.

وقفتُ أمام باب شقته، أمد أصبعي لأضغط الجرس وأعود لأطويه.

جمعتُ قواي وضغطتُ، سمعتُ صوت الجرس فشعرتُ أن الأرض ستنشق من تحتي، وحين فُتح الباب شعرتُ أن قلبي كالجبل يخر هدًا.

كان ابن عمي يقف بملابس البيت، ملامحه لم تتغير إلا نضجًا ولم يتغير بوجهه سوى النظارة التي صارت تعلو أنفه.

حين رآني لم يتحدث، اكتفى بالنظر ينتظر مني الكلام.

مرّت ثوانٍ كسنة، أقف ملجم اللسان أقتنص الكلمات الهاربة:

-كل عام وأنت بخير.. أريد أن أربط هذا الحبل بالشرفة عندك، هل تسمح لي؟

مط شفتيه في استغراب وقال:

--أي حبل؟

-هذا الحبل.. حبل الزينة، فقد اقترب رمضان وأريد أن أزين شارعنا..

ضيّق عينيه ونظر للحبل بيدي ثمّ رفع حاجبيه وعينيه تتحدث عوضًا عنه عن ضيقه، لكنه لم يقلها، فقال باقتضاب:

--تفضل من هنا..

دخل ودخلتُ وراءه للشرفة. في الطريق للشرفة كانت تجلس طفلة صغيرة لا تتجاوز الستة أعوام تشاهد الكرتون على التلفاز.

كانت رقيقة وناعمة كالقطة الصغيرة. نادته:

---أبي..

فقاطعها:

--حالًا حبيبتي سأكون معكِ..

نظرتُ إليها فابتسمت وبادلتُها الابتسام.

دخلنا الشرفة وربطتُ الحبل ورميتُ بكرة الحبل الكبيرة لشرفتي لأربط طرفه الآخر عندي.

شكرته فردّ علي في هدوءٍ:

--عفوًا..

لم أزد على كلماتنا شيئًا، ونزلتُ على الدرج أهدئ من روع قلبي الذي يدّق بصدري بشدّة كأنه يريد الهروب من بين ضلوعي.

"لمَ كل هذا يا قلبي، هو ابن عمي الذي نعرفه، ما الذي تغير؟؟ مرور السنين.. أم الخوف من فتح باب الذكريات الأخيرة المؤلمة التي تغطي بظلمتها على نور الذكريات الأقدم."

دخلتُ شقتي وربطتُ طرف الحبل في الشرفة حين كان باب شرفته مغلقًا. أنظر إليه وأستعيد بعقلي تفاصيل اللقاء القصير بيننا وأحللها بدقة.

كلمات قليلة لكنها تخفي وراءها مشاعر كامنة تريد أن تتحرر وتنطلق. يكبلها الغضب أو بعض الضيق. وربما لا هذا ولا ذاك، ربما هو فقط قيد الجفاء الطويل وهذا يحتاج وقتًا وصبرًا لا أكثر.

في الليلة التالية سمعتُ من غرفتي صوت الطفلة، فعرفتُ أنها تقف في شرفته.

فتحتُ باب الشرفة فوجدتُها تداعب حبل الزينة بين الشرفتين في سعادة وتضحك كلما تحركت أوراقه الملونة معها.

ابتسمت لي عندما رأتني، فسألتُها:

-أتعجبك الزينة ؟؟

فهزت رأسها إيجابيًا في فرح.

قلتُ:

-أتريدين أن نربط بجانبه واحدًا آخرًا؟

قالت وهي تقفز على الأرض ويدها تهز الحبل المربوط.

---نعم .. نعم..

ابتسمتُ لها وجلبتُ الحبل الثاني ونزلتُ.

ضغطتُ الجرس هذه المرة بثقة أكبر من قبل.

فتح ابن عمي الباب مستغربًا ناظرًا للحبل وهز رأسه متسائلًا، فرددتُ عليه:

-لقد أتيتُ بناءً على دعوة الآنسة الصغيرة لأربط الحبل الثاني..

وأشرتُ للطفلة فقد كانت تقف خلفه.

نظر إليها فوجدها تضحك وتقفز على الأرض.

فعاد ونظر إلي وأفسح لي الطريق وأشار -مستسلمًا- بيده أن تفضل.

دخلتُ وسرتُ خلفه ووقفتُ لربط الحبل.

دخلت الطفلة تشاهد ما أفعله ثم قالت له:

---أبي، من يكون هذا؟

فتح فمه لكن لم يجب، فباغته بردّي على الطفلة:

-بإمكانك أن تناديني عمي..

سكت ولم يستطع الرد واكتفى بمداعبة شعر طفلته.

أنهيتُ مهمتي وأخرجتُ من جيبي قطعة حلوى مغلفة وقدمتها للطفلة.

نظرت إلي الحلوى قليلًا مترددة وعيناها تلتهمان الحلوى بين أصابعي. فنظرتُ لوالدها لكي يسمح لها. فأشار لها أن تأخذها.

التقطتها في فرح، وفضت غلافها سريعًا ووضعتها في فمها وهي تضحك وتضحكنا معها.

شعرتُ أن بعضًا من الثلج الذي بيننا قد ذاب، فتجرأتُ وتحدثتُ إليه:

-هل بإمكانك أن تعطيني رقم هاتفك المحمول؟

نظر إلى مترددًا، فباغتُه بكلماتي لأعطيه مبررًا مريحًا:

-لكي لا أحتاج لإزعاجك بالحضور لربط حبال أخرى، يكفي أن أخبرك على الهاتف لتفتح الشرفة وتلتقط مني الحبل لتربطه.

فكان ردّه:

--هل لا يزال هناك حبال أخرى؟؟

-ربّما حبل أو ثلاثة.. فكلما تمكنت من صنع واحد علقته، لأن جدك قد أتاني في المنام وأوصاني بربط حبال زينة رمضان وأن يكون عدد الحبال عددًا فرديًا..

أمال رأسه لأسفل مستهزئًا ينظر إلى من فوق النظارة يريد معرفة الحقيقة مني كما كان يفعل عندما كنا صغارًا، بخلاف وجود النظارة، عندما أخبره ببعض الأكاذيب فيكشفني سريعًا، ثمّ قال:

--جدّك ترك كل ما وراءه في العالم الآخر ليوصيك بحبال الزينة ؟؟

-ألا تصدقني؟

كاد يبتسم لردي المشابه في تلك المواقف ونحن صغار ثم ابتلع ابتسامته.

--حسنًا أصدقك، لا عليك..

-إذن تعطيني الرقم..

لم يجد بدًا سوى إعطائي الرقم فسجلتُه على هاتفي واستأذنتُ للذهاب.

رافقني للباب والصغيرة معه تودعني وتلوح بيدها وتقول:

---سلام..

ولا تكاد الكلمة تتضح حروفها من فرط مداعبة فكها للحلوى وجريان ريقها عليها.

نزلتُ على الدرج والابتسامة على وجهي أداعب هاتفي ليظهر رقم ابن عمي كل عدة ثوانٍ. وأخيرًا لدي الرقم.

فقد استبدل رقمه القديم بآخر جديد، وهذا ما توقعتُه.

في الليلة التالية دخلتُ شرفتي ومعي الحبل والبكرة.

طلبتُه على هاتفه المحمول، في المرة الأولى لم يرد. لكنه رد في الثانية فأخبرتُه أن يفتح شرفته ليربط الحبل.

فتح الشرفة من دون أن يلقي السلام، فقلت له:

-آسف على إزعاجك، فليكن الحبل الأخير إن شئت..

--حسنًا، ألقِ البكرة..

رميتُ البكرة في صمت، فالتقطها وشرع بربط الحبل.

دخلت الصغيرة تلوح لي في فرح وقالت:

---أهلًا عمي!

فاجأته كلماتها فنظر إليها فاتحًا عينيه على وسعيهما دون أن يتحدث لكنها لم تنتبه له فقد كانت مشغولة بالترحيب بي، فعدل نظره وأكمل ربط الحبل.

قلت لها:

-لدي بعض الحلوى، ولكن لكي تأخذيها عليك بالتقاطها، فإن سقطت ترجعيها إلي. والتي تلتقطينها فقط من حقك.. ما رأيك؟

قالت وهي تقفز في فرح:

---نعم نعم..

جلبتُ الحلوى وشرعتُ بالرمي، كانت خائبة بالالتقاط مثلما كان أبيها خائبًا في ربط الحبل.

فظللتُ أرمي ولا تجيد الالتقاط وتجري داخل الشقة لتحضر قطع الحلوى وترميها مجددًا بينما كان أبوها يحاول ربط الحبل فتنفك العقدة ويعود لربطها، وكأن الحبل قد تأمر معنا كي لا يُربط سريعًا وأظلّ أنا والطفلة نلعب سويًا.

استمرينا باللعب لفترة كنا نضحك فيها من قلبينا. كانت ضحكتها التي تهز جسدها كله ويجلجل صوتها كفيلة بجعلي أضحك بلا توقف حتى لم أستطع التقاط أنفاسي.

وكانت كفيلة بجعل أبيها يبتسم وينظر إلينا في سعادة.

توقفتُ وأنا أتنفس بسرعة لجلب الهواء إلى صدري ولم أتوقف عن الضحك، والصغيرة كانت مثلي تمامًا، حتى أنني أشفقتُ عليها من فرط اللعب. فرميتُ لها ثلاث قطع وأخبرتُها أنها هديةً لها على أن تعدني ألا تأكلهم مرة واحدة حتى لا تتسوس أسنانها.

هزت رأسها إيجابيًا وجرت داخل الشقة لتحصل على هديتها.

في الوقت نفسه كان أبوها قد فرغ من ربط الحبل.

نظر إلي وقال:

--شكرًا لأنك أسعدت ابنتي، فهي تشعر بالملل في الفترة الأخيرة..

لم أصدق كلماته الحنونة، حتى أن عقلي تعطل عن التفكير قليلًا ثم حاولتُ الرد لأقتنص اللحظة.

-أنا.. أنا، أنا أعتبرها ابنتي أيضًا، أليست كذلك؟

هزّ رأسه على مضض واستأذني للدخول وغلق الشرفة فسمحتُ له.

لم نتحدث بعدها سوى ليلة رمضان الأولى.

كنتُ عائدًا من التراويح ووجدتُ في طريقي للبيت عند أحد الباعة فانوسًا رائع الألوان، ما لفتني إليه بين الآخرين أنه ذوقه كلاسيكي كالفوانيس التي كان يعلقها جدّي في الشرفة عنده.

قلتُ لنفسي:

"سأشتريه وأعلقه، ولكن أين؟"

جلبتُ الفانوس وذهبتُ إلى شقة ابن عمي، فتح الباب فوجدني أرفع الفانوس الكبير بجانب رأسي كالأطفال.

نظر إلي يسأل بعينيه، ينتظر مني الجواب، فقلتُ:

-الفانوس.. لا تكتمل الزينة بغير الفانوس..

فقال:

--لماذا؟ هل أتاك جدّك في المنام وأخبرك أن الزينة لا تكتمل إلا بالفانوس؟

ضحكتُ فلم يبادلني الضحك، فتداركتُ حرجي، وقلتُ:

-لا، لكني رأيتُه في الطريق فخطرت لي الفكرة، فهل نعلقه في شرفتك؟

--ولمَ عندي؟ بإمكانك أن تعلقه في شرفتك..

كان كلامه منطقيًا، لمَ أعلقه عنده.

توقفتُ للحظة أفكر ثم رددتُ سريعًا:

-ها.. لا عندي لا يجوز، أقصد عندي لن تظهر إضاءته في الشارع مثلما سيكون عندك..

بدا غير مقتنع، فقلتُ بسرعة:

-كما أنني نسيتُ البكرة عندك منذ ربطنا آخر حبل..

همّ ليرد فقاطعتُ أنفاسه قبل كلامه:

-و.. و.. ووصلة الكهرباء التي سنحتاجها لإضاءته.. أنسيتَ أن الوصلة...

--حسنًا.. حسنًا.. اقتنعت، تفضل تفضل..

فتح لي الباب أكثر فدخلتُ منتشيًا كالمنتصر، ولوحتُ بيدي للصغيرة وغمزتُ لها بعيني فغمزت لي ولا أدري لمَ فعلنا ذلك.

دخلتُ الشرفة وعلقنا الفانوس، ووصلنا الكهرباء له، وخرجتُ وأنا أحاول استجماع قوتي وشجاعتي وأرتب الكلمات داخل رأسي قبل أن أصل لباب الشقة.

وعندما وصلتُ:

-ما رأيك أن نتناول الإفطار معًا غدًا؟

علت الحيرة وجهه وما عرف ما يقول، فقلتُ:

-لا تقلق، فسنوات الغربة علمتني كيف أكون طباخًا ماهرًا، ألا تريد أن تأكل من يدي؟

فقال:

--غدًا سنفطر عند والدة زوجتي، فتلك عادتنا كلّ رمضان..

-حسنًا.. بعد غد، ما رأيك؟

ارتبك قليلًا ثمّ قال:

--سنفطر عند أخت زوجتي، و ربما سيأتون هم للإفطار هنا في اليوم الثالث..

تفهمتُ قصده فلم أشقّ عليه وقلتُ:

-حسنًا، أنا سأمكث هنا حتي نصف الشهر تقريبًا ودعوتي مفتوحة لك، ورقم هاتفي لديك، في أي يوم تراه مناسبًا أخبرني وسيسعدني استقبالكم..

هزّ رأسه وهو يهرب بعينيه مني. ابتسمتُ وتركتُه وذهبتُ لبيتنا وأنا أسأل:

"هل سيأتي؟"

مرّت أيام رمضان سريعًا كعادتها، يومٌ تلو الآخر وأنا أنتظر قبوله دعوتي كالزهرة التي تذبل شيئًا فشيئًا من دون أن يرعاها صاحبها بقطرة ماء.

وحان يوم سفري، كان ميعاد الطائرة مساءً لكن يجب على التحرك قبل الإفطار لألحق بها.

رتبتُ حقائبي في غرفتي وأنا أنظر لشرفته المغلقة وحبال الزينة الممتدة بين الشرفتين.

أغلقتُ الحقيبة مستسلمًا لقدري وأغلقتُ باب الشرفة.

نزلتُ الدرج أودع البيت وأغلقتُ باب البيت الحديدي الكبير، كانت سيارة الأجرة في انتظاري، ترجل منها السائق عندما رآني أغلق باب البيت، فأخذ الحقيبة ووضعها في السيارة.

وقفتُ أنظر إلى بيت ابن عمي وأسأل نفسي:

"يا تُرى، هل يعلم ميعاد رحيلي؟"

شردتُ حتى نادني السائق يسألني هل نذهب.

أخبرتُه بهز رأسي موافقًا.

وحين ذهبتُ لركوب السيارة فوجئت بابن عمي ينزل الدرج ببيته مسرعًا حتى وصل إلي لاهثًا مبتسمًا ومعه أكياس يفوح منها رائحة الطعام.

--كنا نخشى ألّا نلحق بك..

قالها وهو يسابق أنفاسه حينما أتت ابنته من وراءه تحمل زجاجة كبيرة من العصير محكمة الإغلاق تساوي نصف طولها تقريبًا.

عندما رأيتُ المنظر حارت الدموع في جفني لكني تمالكتُ نفسي، فقال لي:

--علمتُ أنك وقت الإفطار ستكون في طريقك للمطار، فقلنا نوصلك إلى هناك ونفطر معًا في الطريق، ما رأيك؟

-حقًا سترافقني للمطار مع ابنتك؟

--نعم، الشطائر المحشوة بالدجاج المقلي في انتظارك..

رفع الأكياس وابتسم. ما زال يذكر عشقي للدجاج المقلي.

فقلتُ له:

-إذن هيا إلى السيارة قبل أن يفوتني الميعاد..

حملتُ الطفلة دون حرج منه، وهي تحتضن زجاجة العصير وأجلستُها في السيارة في وسط المقعد الخلفي وجلس كلٌ منا على جانب منها.

انطلقت السيارة وحين حان وقت المغرب تناولنا معًا الإفطار.. أخيرًا.. ونحن نضحك ونتحدث ونذكر الأيام القديمة والذكريات الحلوة ونتجاهل كل ما أحزننا وكان سببًا في الجفاء. حتى وصلنا للمطار وكانت ابتسامتهما آخر ما رأيت قبل صعودي للطائرة.

جلستُ في مقعدي أتذكر ما دار بيننا من حديث السيارة وكأنه كان حلمًا.

لقطة النهاية تساوي صبر ثلاثة أسابيع، وتشبعني لعطلتي القادمة.

الآن أسافر بقلبٍ جديد مفرغًا من الهموم.

حان وقت الإقلاع، سأغمض عينيّ لأتذكر شكل حبال الزينة قبل رحيلي آملًا أن أعود وهل لا تزال ممدودة.

.....